الفصل الأول

مفهوم الوسطية تعريفا ونشأة

١- الوسطية في اللغة .

٢- الوسطية في القرآن .

٣- الوسطية في السنة .

٤- الوسطية في الاصطلاح .

٥- الوسطية عند العلماء السابقين .

٦- الوسطية وبداية ظهور الدعوة إليها .

obeikandl.com

obeikandl.com

مفهوم الوسطية تعريفا ونشأة

قبل الحديث عن دور القرضاوي في تأصيل الوسطية وإبراز معالمها ؛ لا بد من إلقاء الضوء أولا على مفهوم الوسطية وتعريفها كمصطلح عند دعاتها ، مع بيان نشأة هذه المصطلح كمصطلح يتبناه دعاة وفقهاء . وهذا ما سيكون في هذا الفصل ، والذي يشمل :

١- الوسطية في اللغة .

٢- الوسطية في الاصطلاح .

٣- الوسطية في القرآن .

٤- الوسطية في السنة .

٥- الوسطية عند العلماء السابقين .

٦- الوسطية وبداية ظهور الدعوة إليها .

(١)
الوسطية في اللغة

كلمة (الوسطية) مشتقة من مادة (وسط) أعني : (الواو والسين والطاء) . ويختلف معنى الكلمة باختلاف ضبطها ، وبيانه كالتالي :

(وسط) بين الاسمية والظرفية :

لكلمة (وسط) ضبطان ، ولكل ضبط منهما معنى أو معان يأتي بها .

الضبط الأول ومعناه :

أما الضبط الأول فتضبط هكذا (وسْط) بسكون السين ، وتكون ظرفا لا اسما ، ويكون معناها : (بين) تقول : جلست وسط القوم : أي : بينهم . ومنه قول أبي الأَخْزَر الحِمَّانيّ :

سَلُومَ لوْ أَصْبَحْتِ وَسْط الأَعْجَمِ . . . . .

وقال سَوَّارُ بن المُضَرَّب :

إنِّي كأَنِّي أَرَى مَنْ لا حَيَاء لَه ولا أَمانةَ وسْطَ الناسِ عُرْيانَا[1].

الضبط الثاني ومعناه :

وأما الضبط الثاني فتضبط بفتح السين هكذا (وسَط) وتكون اسما لا ظرفا ، وهنا يتعدد المعنى للكلمة ؛ لكن تكون كلها معان متقاربة ، ومن ذلك :

---

(١) انظر : لسان العرب ابن منظور ج٧ ٤٢٦ دار صادر ـ بيروت الطبعة الأولى .

obeikandl.com

١- بمعنى عدل ، قال صاحب لسان العرب : ووَسَطُ الشيءِ وأَوْسَطُه أَعْدَلُه . وفي القاموس : الوَسَطُ محركةً من كلّ شيء : أَعْدَلُهُ .[١]

٢- بمعنى : ما بين الجيد والرديء ، يقال أَيضاً شيءٌ وَسَطٌ أي بين الجَيِّدِ والرَّدِيءِ[٢] .

٣- أن تكون اسما لما بين طرفي الشيء وهو منه ، كقولك : قَبَضْت وسَط الحبْل وكسرت وسَط الرمح ، وجلست وسَط الدار . ومنه المثل : (يَرْتَعِي وسَطاً ويَرْبِضُ حَجْرةً) أَي : يرْتَعِي أَوْسَطَ المَرْعَى وخِيارَه ما دام القومُ في خير ؛ فإِذا أَصابهم شَرٌّ اعتَزلهم ورَبَضَ حَجرة أَي ناحية منعزلاً عنهم .[٣]

٤- أن تكون صفة بمعنى : (خيار) ، ومنه قولك : مَرْعىً وسَطٌ . أَي : خِيار . ومنه قول الشاعر :

إنَّ لهـــا فَوارســـاً وفَرَطـــا ونَفْرَةَ الحَـيِّ ومَرْعـىً وَسَـطا[٤]

تصريفات الكلمة ومعانيها :

ويبدو أن جميع تصريفات (وسط) لا تخرج عن المعاني السابقة ، ومن ذلك :

١- وسَطْتُ القومَ أَسِطُهم وَسْطاً وسِطةً : أَي تَوَسَّطْتُهم .

٢- وَسَطَ الشيءَ وتَوَسَّطَه : صار في وسَطِه .

٣- وُسُوطُ الشمس : توَسُّطُها السماء .

---

(١) انظر:لسان العرب ابن منظور ج٧ / ٤٢٦، وانظر:القاموس المحيط الفيروز آبادي ص٨٩٣ .

(٢) انظر : مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص ٧٤٠ مكتبة لبنان . بيروت ١٩٩٥.

(٣،٤) انظر : لسان العرب ابن منظور ج٧ ص ٤٢٦.

٤- واسِطةُ القِلادة : الدُّرَّة التي وسَطها وهي أَنْفَس خرزها .

٥- التوْسِيطُ : قَطْعُ الشيء نصفين .

٦- التَّوَسُّطُ : من الناس من الوَساطةِ .

ولله در علي بن أبي طالب ﷺ حين قال : عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل[١] .

وما أحسن ما قال الأعرابي : عَلَّمني دِيناً وَسُوطاً ، لا ذاهِباً فُرُوطاً ، ولا ساقِطاً سُقُوطاً .

الفرق بين (وسْط) بالسكون و (وسَط) بالفتح :

ويبدو أن بين (وسْط) بالسكون و (وسَط) بالفتح فروقا عدّة :

الأول : أن (وسْط) بالسكون لا تكون إلا ظرفا . وأن (وسَط) بالفتح لا تكون إلا اسما .

ولكن إذا دخل على (وسْط) بالسكون حرفُ الوِعاء[٢] خرج عن الظرفية ، ورجعوا فيه إلى (وسَط) بالفتح ويكون بمعنى وسْط ؛ كقولك : جلسْتُ في وسَط القوم ، وفي وسَطِ رأْسِه دُهن . والمعنى فيه مع تحرُّكه كمعناه مع سكونه[٣] .

الثاني : أن كلُّ موضع صلَح فيه بَيْن فهو وسْط ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسَط بالتحريك[٤] .

---

(١) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) ، (٢/ ١٤٨) ، وقال صاحب تخريج الإحياء : أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث موقوفا على علي ابن أبي طالب ، ولم أجده مرفوعا(١/٥٠).

(٢) المقصود بحرف الوعاء (حرف الجر : في).

(٣) انظر : لسان العرب ج٧ ٤٢٦ ، وانظر : تاج العروس للزبيدي ٥٠٣٥.

(٤) انظر : لسان العرب ج ٧ ٤٢٦.

الثالث : حُكي عن ثعلب : أن (وسَط) الشيء بالفتح : الشيء إذا كان مُصْمَتاً ، فإذا كان أجزاء مُخَلْخَلة فهو (وسْط) بالإسكان لا غير[1] .

ومن هنا فإن لفظة وسط في اللغة تعني عدة أمور منها :

١- الخيرية .

٢- النصف .

٣- العدل .

٤- الجيد .

٥- البينية .

---

(١) انظر : لسان العرب ج٧ ٤٢٦.

obeikandl.com

(٢)

الوسطية في الاصطلاح

تحدث كثير من العلماء والدعاة عن مفهوم الوسطية ، كل يذكر المعنى الذي استقر عليه ، ووضح عنده ، وسأذكر هنا طرفا من هذه التعريفات ، ثم أقف بالقارئ على التعريف الذي أراه مناسبا لهذه الكلمة .

يقول **فريد عبد القادر** : الوسطية هي : مؤهل الأمة الإسلامية من : العدالة ، والخيريّة للقيام بالشهادة على العالمين ، وإقامة الحجَّة عليهم .

ويقول **محمد قطب** : الوسطية هي التوازن . وجعلها من أبرز خصائص منهج الفن الإسلامي فقال : وهي بذاتها أبرز سمات الإنسان الصالح ، الذي يسعى المنهج لتحقيقه في واقع الأرض : الشمول والتكامل ، التوازن ، الإيجابية السوية ، الواقعية المثالية[١] .

واعتبر التوازن : معنى شاملا يشمل كل نشاط الإنسان ؛ فهو توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح . توازن بين ضروراته وأشواقه . توازن بين الحياة في الواقع والحياة في الخيال . توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن في النظم والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . توازن في كل شيء [٢].

وأما عند **سيد قطب** : فأقرب ما يكون تعريفا للتوازن في التصور الإسلامي عند سيد قطب : أنه اعتبار الإسلام لجميع الحقائق الواقعة ، دون تعسف ، ودون هوى ، ودون شهوة ، ودون غرض ، ودون جهل ، ودون قصور [٣].

---

(١) انظر : منهج التربية الإسلامية محمد قطب ج١ ص ٣٥ دار الشروق ط الثالثة ١٩٧٦م .

(٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٢٩.

(٣) انظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته سيد قطب ص١٦٣ دار الشروق .

وأما عمر بهاء الدين الأميري : فقد اعتبر وسطيَّة الأمَّة في كل مجال سواء التوسّط الجغرافي أو المكاني أو المناخي . وممّا قاله : وقد كان من تدبير الله الحكيم العليم في هذه الأمَّة أن جعل وسطيَّتها في كل مجال : فهي موطن الرّسالة الأولى ، وفي ساحتها الحضاريَّة المشعّة المترامية الأطراف ــ من بعد ــ في مناخ محتمل ، وجوّ مسعف ، لا في مناطق بركانيَّة زلزاليَّة ، ولا لاظية استوائيَّة ، ولا متجمّدة قطبيَّة ، حيث تقعد قساوة الطبيعة بالإنسان عن الحركة والنّشاط والإعمار الحضاري .

وهي وسط في موقعها الجغرافي المهمّ ، حيث كانت مهابط الوحي ، أرض الإسلام ، ومهد الأمَّة الإسلاميّة الأولى . فهي الوسط بين الشّمال والجنوب ، والشرق والغرب ، وهي مركز الوصل بين إفريقيا وآسيا ، وطرف ممتدّ من أوروبا ، وهي الرّباط البريّ بين الطّرق المائيَّة [1] .

واعتبرها **يوسف كمال** : حدودا لمنهج الحركة في طريق مستقيم إلى هدف ، بعيد عن انحرافات في سبل شتّى تؤدّي للضّلال[2] .

وعند **محمد عمارة** : إنها الحق بين باطلَين ؛ والعدل بين ظلمَين ؛ والاعتدال بين تطرفَين ؛ والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال ، الرافض للغلوّ إفراطا وتفريطا ؛ لأن الغلو الذي يتنكّب الوسطية هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبَي الظاهرة ، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان [3] .

وأما عند **القرضاوي** فهي تعني : التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ، ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على مقابله ويحيف عليه [4] .

---

(١) انظر : وسطية الإسلام وأمَّته في ضوء الفقه الحضاري ص ٥٨ ، والوسطيَّة في الإسلام ص (و) لفريد عبد القادر نقلا عن الوسطية في ضوء القرآن ص ٢٨ د : ناصر العمر دار الوطن الرياض ط الأولى ١٩٩٣م .

(٢) انظر : مستقبل الحضارة ليوسف كمال ص ١٢٧.

(٣) انظر : معالم المنهج الإسلامي د : محمد عمارة ص ٧٧ دار الشروق ط الأولى ١٩٩١م .

(٤) انظر : الخصائص العامة للإسلام د : القرضاوي ص ١١٥.

ويضرب الشيخ القرضاوي مثالا للأطراف المتقابلة أو المتضادة ، فيقول : مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة : الربانية والإنسانية ، الروحية والمادية ، الأخروية والدنيوية ، الوحي والعقل ، الماضوية والمستقبلية ، الفردية والجماعية ، الواقعية والمثالية ، الثبات والتغير ، وما شابهها .

ومعنى التوازن بينها : أن يُفسح لكل طرف منها مجاله ، ويعطي حقه (بالقسط) أو (بالقسطاس المستقيم) بلا وَكْس ولا شطط ، ولا غلو ولا تقصير ، ولا طغيان ولا إخسار . كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧-٩) . فالوسطية هي التي تقيم الوزن بالقسط ، فلا طغيان ولا إخسار [١].

ليس شرطا أن تكون الوسطية بين طرفين :

ويلاحظ أن البعض في تعريفه للوسطية يذكر أنها وسط بين شيئين ، وهذا ليس مضطردا ، فالوسطية لا تَلْزم دائما أن تكون بين طرفين متقابلين أو متضادين ، فإذا كانت الشجاعة وسطا بين الجبن والتهور ، وإذا كان الجود أو الكرم وسطا بين التقتير والتبذير ، فالظلم ـــ مثلا ـــ ليس وسطا بين طرفين متقابلين ؛ وإنما هو مقابل العدل . والصدق ليس وسطا بين طرفين متقابلين ؛ وإنما هو مقابل الكذب . وكذلك الأمور الفكرية والنفسية والأمور السلوكية قد يصعب فيها تحديد هذه البينية .

ويمكن أن نضرب مثالا هنا بما جاء عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « ... فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »[٢] .

---

(١) انظر : الخصائص العامة للإسلام القرضاوي ص ١١٥

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) .

ومثل ذلك ما ذكره ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) إذ يقول : والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال : قريش أوسط العرب نسبا ودارا . أي : خيرها . وكان رسول الله ﷺ وسطا في قومه . أي : أشرفهم نسبا . ومنه الصلاة الوسطى ، التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر ؛ كما ثبت في الصحاح وغيرها [١].

فالمقصود بالوسطية هنا الجودة والأفضلية والخيرية ، وليس البينية .

يقول فريد عبد القادر في كتابه الوسطية في الإسلام : أما ما شاع عند الناس وانتشر من الوقوف عند أصل دلالتها اللغوية ، أي التوسّط بين طرفين ، مهما كان موضع هذا الوسط ــ الذي تمَّ اختياره ــ من صراط الله المستقيم ، التزامًا وانحرافًا ، فليس بمفهوم صحيح وفق ما تبينه الآيات والأحاديث[٢] .

ويؤكّد هذا المعنى في موضع آخر ، فيقول : ولا يلزم لكل ما يعتبر وسطًا في الاصطلاح أن يكون له طرفان ، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظّلم ، والصّدق وسط ولا يقابله إلا الكذب[٣].

لا بد من وجود الخيرية في الوسطية :

كما ينبغي الإشارة إلى ضرورة وجود الخيرية فيما يوصف بالوسطية حتى يتم التعريف ، وقد ألمح إلى هذا الطاهر بن عاشور فقال : فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفا [٤].

---

(١) انظر : ابن كثير ج ١ص ٢٥٨ .

(٢) انظر : الوسطيَّة في الإسلام ص ٢٩ ، نقلا عن الوسطية د : ناصر العمر ص ٢٨. ط دار الوطن الرياض ط الأولى ١٩٩٣م .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٤) انظر التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور ج٢ ص ١٧.

وعلى هذا فإن تعريف شيخنا القرضاوي عليه أمران :

الأول : أنه اشترط التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين . وهذا ليس مضطردا كما ذكرنا .

الثاني : إضافة معنى الخيرية ، فمما لا شك فيه أن الوسطية ليست محمودة مطلقا ؛ فكما مدحت في المواقف التي ذكرناها ، جاء ذمها ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1](النساء:١٤٣) .

نعم هذه (وسطية) ؛ لكنها (وسطية) المصلحة والمنفعة ، وسطية (مسك الحبل من الوسط) أو (اللعب على الوجهين) أو (الحديث بلسانين) فهم كما قال الشاعر :

يوماً يمان إذا مـا كنـت ذا يمـن وإن لقيـت معـدياً فعـدناني

ولقد عاب القرآن على المنافقين هذه الحالة ، وشنّع بهم وبموقفهم البغيض ، لأنها (وسطية) أو(بينية) في غير موضعها . قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النساء:١٤٣) : أي لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين ، أو لا صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين.[2]

---

(١) قال صاحب لسان العرب : رجلٌ مُذَبْذَبٌ ومُتَذَبْذِبٌ مُتَرَدِّدٌ بين أمْرَين أو بين رجُلَين ولا تَثْبُتُ صُحْبَتُه لواحدٍ منهما .(١/٣٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم محمد بن محمد العمادي أبو السعود ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ج٢/ ٢٤٦.

(٣)
الوسطية في القرآن

مشتقات (وسط) في القرآن :

لم ترد كلمة «الوسطية» في القرآن الكريم ، وإنما جاءت بعض تصريفات الكلمة في خمس مواضع ، وهي كالتالي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) .

٢- قوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ (البقرة:٢٣٨) .

٣- قوله تعالى : ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة:٨٩) .

٤- قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم:٢٨) .

٥- قوله تعالى : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ (العاديات:٥) .

آيات تدل على الوسطية معنى لا لفظا :

كما أن هناك آيات عديدة ، جاءت في القرآن الكريم تدل على «التوسط أو الوسطية أو الاعتدال» معنى وإن لم ترد لفظا ، ومنها :

١- قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (البقرة:٦٨) .

قال ابن كثير موضحا وسطية البقرة التي تذبح : الفارض : الهرمة التي لا تولد والبكر التي لم تلد إلا ولدا واحدا ، والعوان النصف التي بين ذلك ، التي قد ولدت وولد ولدها[١] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج١ / ١٥٣ .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان:٦٧) .

فالمسلم وسط في إنفاقه ، بعيدا عن الإسراف ، بعيد عن التبذير ، قال ابن كثير : فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه لا إفراط ولا تفريط[١].

٣- قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (الإسراء:٢٩).

فكلا الأمرين مذموم ، وكلاهما مهلك للإنسان ، قال ابن كثير : لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطا[٢]. وقال أيضا : أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم . بل عدلا خيارا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا[٣].

٤- قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:١١٠).

قيل المقصود بالصلاة هنا : القراءة ، وقيل : الصلاة ، وعلى كل فالمطلوب التوسط في رفع الصوت ، سواء كان في الصلاة ، أم خارجا عنها ، قال القرطبي بعد أن ذكر أقوال السلف : روي عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر ﷺ كان يسر قراءته ، وكان عمر يجهر بها . فقيل لهما في ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنما أناجي ربي وهو يعلم حاجتي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما نزلت هذه الآية ؛ قيل لأبي بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر : أخفض أنت قليلا[٤].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج ٢ / ١١٩.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ / ٥٢.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ / ٤٣٣.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ج١٠/ ٢٩٧.

وقد فطن لهذه المواطن الأربعة الحسين بن الفضل حين قيل له : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ؛ فهل تجد في كتاب الله خير الأمور أوساطها؟ قال : نعم . في أربعة مواضع : وذكر الآيات السابقة[1] .

٥- قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١) .

فالأكل والشرب هنا مأمور بهما ، لكن المنهي عنه : هو الخروج عن حد الاعتدال والتوسط ، قال الشوكاني في فتح القدير : أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف ، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه ، وهو من أهل النار كما صح في الأحاديث الصحيحة .

والمقلل منه ــ أي الطعام والشراب ــ على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به ؛ من طاعة ، أو سعي على نفسه ، وعلى من يعول ؛ مخالفا لما أمر الله به ، وأرشد إليه . والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير ؛ مخالف لما شرعه الله لعباده ، واقع في النهي القرآني[2] .

٦- قوله تعالى :﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ (لقمان:١٩).

فالمشي وإن كان عادة من العادات ، إلا إن التوسط مطلوب فيه ، فلا تماوت ولا إسراع ، قال ابن كثير : أي امش مقتصدا مشيا ليس بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ؛ بل عدلا ، وسطا بين بين[3] .

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن السيوطي ج٤ ص ١٠٦ ت : د محمود أحمد القيسية ، ومحمد أشرف الأتاسي مؤسسة النداء أبو ظبي ط الأولى ٢٠٠٣م .

(٢) انظر : فتح القدير الشوكاني ج٢/ ٢٩١.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ج٣/ ٥٨٨.

وقال البغوي : أي : ليكن مشيك قصدا ، لا تخيلا ولا إسراعا[1] .

٧- قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات:٩) .

فالواجب هنا الإصلاح بين الطائفتين بالعدل والقسط ، وهذا يعني عدم الجور ، وتلك قمة الوسطية ، قال الطاهر ابن عاشور : والعدل : هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف ، وأن لا يضر بإحدى الطائفتين ، فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتا شديدا ، فتجب مراعاة التعديل[2] .

٨- قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص:٧٧) .

فالوسطية هنا هي : عدم إهمال الآخرة انشغالا بالدنيا ، وعدم ترك الدنيا انشغالا بالآخرة . قال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني[3] .

٩- قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٥) .

وهنا تظهر وسطية الوزن والاعتدال فيه ، دون أن يحيف أحد الطرفين على الآخر ، قال ابن كثير : وقوله : ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب[4] .

---

(١) انظر : تفسير البغوي ج١ /٢٨٩.

(٢) انظر : التحرير والتنوير ج١ / ٤٠٩٩.

(٣) انظر : فتح القدير ج٤ /٢٦٦.

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ / ٥٦.

١٠- قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ (الأنعام:١٥٢) .

وهذه الآية كسابقتها ، فالاعتدال في الوزن مطلوب ، قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء والقسط : العدل[١] .

١١- قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ (هود:١١٢)

وهنا أمر من الله تعالى - يقتضي الوجوب والإلزام - بالتوسط والاعتدال والبعد عن الإفراط أو التفريط ، وقد أشار إلى هذا البيضاوي في تفسيره فقال :

لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة ، وأطنب في شرح الوعد والوعيد ؛ أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل ما أمر بها ، وهي شاملة للاستقامة في العقائد ؛ كالتوسط بين التشبيه والتعطيل ، بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين ، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع ما أنزل ، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر[٢] .

وقد أوضح الألوسي ما في الآية من وسطية فقال : والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة وهي لزوم المنهج المستقيم ، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط ، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق ، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه ﷺ وبين سائر المؤمنين ، والأمور الخاصة به عليه الصلاة والسلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة . . . وغير ذلك ، وقد قالوا : إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ج٧ / ١٢٠.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ج١ / ٢٦٦.

لا يكون ميل إلى أحد الجانبين قيد عرض شعرة ، مما لا يحصل إلا بالافتقار إلى الله تعالى ، ونفي الحول والقوة بالكلية ، ومثلوا الأمر المتوسط بين ذينك الطرفين بخط يكون بين الشمس والظل ليس بشمس ولا ظل بل هو أمر فاصل بينهما ولعمري إن ذلك لدقيق ولهذا قالوا : لا يطيق الاستقامة إلا من أيد بالمشاهدات القوية ، والأنوار السنية ، ثم عصم بالتشبث بالحق[1] .

١٢- قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء:٢٦) .

فالآية تأمر بإعطاء كل ذي حق ـ من ذوي القربى والمساكين وابن السبيل ـ حقه ، لكن دون إسراف أو تبذير ، يقول ابن كثير : لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطا[2] .

ويبدو أن ابن عاشور لمح هذا المعنى البلاغي العظيم الذي في الآية فقال : وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة ، فكانت من الحكمة . وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة ، فأما الحكمة فإذا بينت أن المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط ، وهذه الأوساط المحامدة بين المذام من كل حقيقة لها طرفان . وقد تقرر في حكمة الأخلاق أن لكل خلق طرفين ووسطا ، فالطرفان إفراط وتفريط ، وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد ، وأن الوسط هو العدل ، فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها : الشح وهو مفسدة للمحاويج ولصاحب المال ، إذ يجر إليه كراهية الناس إياه وكراهيته إياهم . والطرف الآخر : التبذير والإسراف وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته ، لأنه يصرف ماله عن مستحقه إلى مصارف غير جديرة بالصرف .

---

(١) انظر : روح المعاني ج١٢/ ١٥٢.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ / ٥٢.

والوسط : هو وضع المال في مواضعه وهو الحد الذي عبر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا ولا)[1] .

١٣- قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة:٢٠١) .

ووسطية الآية هنا تظهر واضحة جلية في كون هؤلاء القوم في دعائهم لم يطلبوا الدنيا ويعزفوا عن الآخرة ، كما أنهم لم يطلبوا الآخرة وينسوا الدنيا ، وإنما جمعوا في دعائهم حسنة الدنيا والآخرة ، ولهذا لم يكن من العجب أن يجعل النبي ﷺ هذه الآية دعاء الطائف بالبيت حاجا أو معتمرا أو متطوعا .

الوسطية بين المعنى اللغوي والمعنى القرآني :

من الملاحظ أن الآيات التي جاءت فيها مادة (وسط) لا تخرج في معناها عن المعنى اللغوي ، وهذا يعني أن المعنى اللغوي يتفق مع المعنى القرآني .

* * *

(١) انظر : التحرير والتنوير ج١/ ٢٤٥١.

obeikandl.com

(٤)
الوسطية في السنة

جاءت مادة (وسط) بكثرة في الحديث النبوي الشريف ، ومعناها في السنة المطهرة لا يخرج عن معناها اللغوي ، أو المعنى الذي جاء به القرآن . ويمكن تقسيم ما ورد في السنة عن الوسطية إلى قسمين :

الأول : أحاديث وردت فيها مادة (وسط) وتدل على الوسطية ، مثل :

١- عن عبد الله بن معاوية الغاضري من غاضرة قيس قال : قال النبي ﷺ : « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان ؛ من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولا يعطي الهرمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولا الشرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره»[(١)] .

٢- عن عبد الله رضي الله عنه قال : خَطَّ النبي ﷺ خطًّا مربعا ، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجا منه ، وخط خُطَيْطًا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط . وقال :« هذا الإنسان وهذا أجله محيط به ــ أو قد أحاط به ــ وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض . فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[(٢)] .

---

(١) رواه أبو داوود في الزكاة (١٥٨٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٤٠٠).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٧).

الثاني : أحاديث تفيد الوسطية دون ورود اللفظ ، مثل :

١- دخل النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها ووجد عندها امرأة سأل : «من هذه ؟ قالت : فلانة ؛ تذكر من صلاتها[١]، قال : مه[٢] عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، قالت عائشة : وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[٣].

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« سددوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا»[٤] .

٣- عن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا .[٥] قوله : قصدا : أي بين الطول والقصر .

٤- عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«عليكم هديا قاصدا ، عليكم هديا قاصدا ، عليكم هديا قاصدا ! فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه » .[٦]

٥- عن أنس بن مالك قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»[٧] .

---

(١) تذكر من صلاتها : أي من كثرتها.

(٢) مه : كلمة زجر. ولا يمل الله أي لا يقطع ثوابه عنكم حتى تملوا أو تتركوا عبادتكم.

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٤٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٥) عن عائشة.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٣) عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٦).

(٦) رواه أحمد (١٩٧٨٦) عن أبي برزة. وقال محققو المسند : إسناده صحيح ، وابن خزيمة في صحيحه (١١٧٩) والحاكم (٤٥٧) وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله موثقون. (مجمع الزوائد : ٦٢/١).

(٧) رواه أحمد في المسند (١٣٠٥٢) عن أنس ، وقال محققو المسند : حسن بشواهده وهذا إسناد ضعيف ، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٤٠٠٩) ، ورواه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو (٤٠٢/٣).

٦- عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :« لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[١] .

٧- عن مقدام بن معدي كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ما ملأ آدمي شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه »[٢] .

فهذه الأحاديث ـ وغيرها كثير ـ تؤكد على البعد عن الإفراط والتفريط ، والالتزام بالاعتدال والتوسط ؛ الذي هو روح الشريعة الغراء .

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٤٥) عن عمر .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٧٣٨). وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥) .

obeikandl.com

(٥)
الوسطية عند العلماء السابقين

لم يكن لفظ الوسطية من الألفاظ المعروفة أو المصطلحات المشهورة عند الأقدمين من العلماء والفقهاء والمفسرين ـ وإن كان المعنى ظاهرا جليا عندهم ـ ولكي أدلل على هذا ، أنقل هنا من كلامهم رحمهم الله ما يوضح هذا .

الوسطية عند الإمام الطبري (ت ٣١٠ هـ) :

يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) : وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع : هو الوسط الذي بمعنى : الجزء الذي هو بين الطرفين ، وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين ؛ فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب ، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله ، وقتلوا أنبياءهم ، وكذبوا على ربهم ، وكفروا به . ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها .[1]

الوسطية عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨ هـ) :

وقد تحدث عن الوسطية أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في عدد من كتبه ، مظهرا هذه الخصيصة التي تتجلى واضحة في الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا ، فيقول : فإن الإسلام وسط في الملل بين الأطراف المتجاذبة والسنة في الإسلام

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج٢ ص ٨ .

كالإسلام في الملل ، فالمسلمون في صفات الله تعالى وسط بين اليهود الذين شبهوا الخالق بالمخلوق ، فوصفوا الخالق بالصفات التي تختص بالمخلوق ، وهي صفات النقص ؛ فقالوا : إن الله فقير ، وإن الله بخيل ، وإن الله تعب لما خلق العالم فاستراح . وبين النصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق ؛ فوصفوه بالصفات المختصة بالخالق فقالوا : هو الله .

والمسلمون وصفوا الخالق بصفات الكمال ، ونزهوه عن صفات النقص ، ونزهوه أن يكون شيء كفوا له في شيء من صفات الكمال ، فهو منزه عن صفات النقص مطلقا ، ومنزه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات ، وكذلك هم في الأنبياء وسط ، فإن اليهود كما قال فيهم : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة:٨٧) ، وكذلك كانوا يقتلون الأنبياء ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس .

والنصارى غلوا فأشركوا بهم ومن هو دونهم ، قال الله فيهم : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣١).[1] .

الوسطية عند الإمام ابن القيم (ت٧٥١ هـ) :

ولم يكن الإمام ابن القيم بعيدا عن مفهوم (وسطية الإسلام) ، لكنه ركز أكثر ما ركز على (وسطية) العقيدة ، وكرر هذا مرارا في عدد من كتبه ، ومن ذلك قوله : الآن التقت حلقتا البطان ، وتداعى نزال الفريقان ، نعم ؛ وههنا أضعاف أضعاف ما ذكرتم ، وأضعاف أضعافه ، وللناس ههنا مسلكان عليهما يعتمد المتكلمون في هذا الباب لا نرتضيهما ؛ بل نسلك مسلك العدل والتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ، والوادي بين الجبلين ، والهدى

---

(١) انظر : الصفدية ابن تيمية الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ ج٢ص٣١١- ٣١٣ تحقيق : د . محمد رشاد سالم .

بين الضلالتين ، وقد جعل الله هذه الأمة هي الأمة الوسط في جميع أبواب الدين ، فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين ؛ كانت هي في الوسط[1] .

الوسطية عند الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) :

وهذا كلام عالم جهبذ ، وأصولي حاذق ، هو الإمام الشاطبي ، حيث يظهر لمطالع كتابه الماتع (الموافقات) أن مبدأ الوسطية واضح وأصيل لديه رحمه الله ، ومن فاتحة الكتاب ومقدمته أشار الشاطبي إلى هذا ، فقال بعد أن ذكر العديد من طوائف الناس ، وما يعطى لكل واحد منهم مما يتناسب معه من الأدلة : وينزل كلا منهم منزلته حيث حل ، ويبصره في مقامه الخاص به بما دق وجل ، ويحمله فيه على الوسط الذي هو مجال العدل والاعتدال ، ويأخذ بالمختلفين على طريق مستقيم بين الاستصعاد والاستنزال ، ليخرجوا من انحرافي التشدد والانحلال ، وطرفي التناقض والمحال[2] .

فهذه كلمات نيرات لطائفة من علماء الأمة تظهر لكل ذي عينين وسطية هذه الأمة ؛ إنها وسطية في العقائد ، وسطية في العبادات ، وسطية في الأخلاق ، وسطية في المعاملات .

* * *

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ج٢/٢٤٢. باختصار.

(٢) انظر : الموافقات في أصول الشريعة الشاطبي ج١/ ٢٣ دار المعرفة بيروت ط الثانية ١٩٧٥م.

obeikandl.com

(٦)

الوسطية وبداية ظهور الدعوة إليها

يعتبر الشيخ القرضاوي ـ كما سنذكر لاحقا ـ أبرز دعاة الوسطية ، ورافع لوائها في العقود الأخيرة ؛ وهذا لا يعني أنه أول من تحدث عن هذه الخصيصة ؛ كما أنه لا يعني كذلك أن عددا كبيرا من علماء الأمة ودعاتها لم يسلكوا هذا المسلك ، أو لم يرفعوا هذا الشعار ؛ وإنما كان لكل واحد منهم نصيب ، وللشيخ ـ حسبما أرى ـ النصيب الأوفر .

وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى عدد من دعاة المدرسة الوسطية في كتابه «دراسة في فقه المقاصد» فقال : وقد وُجد من فقهاء هذه المدرسة في كل عصر من وفقه الله تعالى ليفتي الأمة بما يُحبب إليها خالقها ، ويرغبها في طاعته ، نتيجة لاتباعه منهج التيسير والتبشير ، الذي أمر به رسول الله ﷺ .

ومن قرأ فتاوى العلاّمة المجدد السيد محمد رشيد رضا (ت١٩٣٥م) في (مجلة المنار) التي جمعت في ستة مجلدات كبار ، وآراءه في تفسير المنار : وجدها تمثل هذا التيار الوسطي المتوازن .

ومن قرأ فتاوى العلاّمة النجدي السلفي الشيخ عبد الرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) وآراءه في تفسيره (تفسير الكريم المنان) وجد فيه الروح الميسرة المعتدلة ، التي كثيرا ما يفند فيها قول الأصحاب ، ويخرج عنه ، لاعتبارات شرعية ومصلحية أرجح معه،برغم أن بيئته يغلب عليها التشدد والتمذهب كما هو معلوم.

ومن قرأ فتاوى العلاّمة المصري الشيخ محمود شلتوت (ت ١٩٨٥م) وآراءه في تفسيره وتوجيهاته ؛ لمس فيها هذه الوجهة النيرة ، التي ترد النصوص الجزئية إلى المقاصد الكلية ، ولا تتعصب لمذهب من المذاهب ، أو لقول من الأقوال .

ومن قرأ فتاوى العلاّمة السوري الشيخ مصطفى الزرقا (ت ١٩٩٩م) وكتبه التي عرضت الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد ، ومدخله الفقهي العام ، وغيرها : تجلت له المدرسة الوسطية بخصائصها ومرتكزاتها وثمراتها .

ومن قرأ فتاوى العلاّمة القطري الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود (١٩٨٧م) ورسائله العلمية المختلفة في القضايا الحيّة : وجد هذا النفس المبارك ، الذي يراعي المقاصد ويرفض التشدد والتنطع ، كما يرفض التقليد والتعصب المذهبي ، ويعلن عن رأيه في شجاعة أدبية لا تتوافر للكثيرين ، كرسالة (يسر الإسلام) التي أجاز فيها رمي الجمرات قبل الزوال من نحو خمسين عاما ، ورسالته في مشروعية الإحرام لركاب الطائرات من جدة ، ورسالته في نقد الأضحية عن الميت رغم شيوع ذلك عند الحنابلة [1].

والذين كتبوا عن الوسطية ومنهج الوسطية في العصر الحديث يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١- من اتخذ الوسطية منهجا وإن لم يتحدث عنها صراحة ، لكنها ظهرت واضحة في منهجه . كالإمام محمد رشيد رضا ، والشهيد حسن البنا ، والشيخ عبد الرحمن السعدي ، والشيخ محمد الغزالي . . . وغيرهم .

٢- من كتب عن الوسطية وتحدث عنها صراحة ، لكنه ربما جنح عنها في بعض الأحيان إلى الشدة ، كالشهيد سيد قطب ، فقد يميل الشهيد إلى التشدد أحيانا ، وقد يسيء البعض فهم المراد من كلماته أحيانا أخرى ، لما لها من الطابع الأدبي الذي يحتاج إلى قارئ ذوّاقة .

٣- من اتخذ الوسطية منهجا وتحدث عنها صراحة ، والتزم بها في منهجه ، كالشيخ القرضاوي . . . وغيره من الدعاة .

---

(١) انظر : دراسة في فقه مقاصد الشريعة ص٢١٥، ٢١٦ دار الشروق ط الأولى ٢٠٠٦م .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بداية ظهور مصطلح الوسطية في الفترة الأخيرة ؛ فيمكن القول بأن من أشهر من كتب عن الوسطية تفصيلا من المشايخ الكرام : محمد محمد المدني ، ومحمود شلتوت ، محمد عبد الله دراز ، وعبد الرحمن السعدي ، ومحمد قطب ، وسيد قطب ، ومحمد عمارة ، والقرضاوي . ثم تتابع الكُتاب والعلماء والمفكرون والخطباء ، يدورون في نفس الفلك ، كل يحاول أن تلتفت الأنظار إلى كلماته وعباراته ، وهم بين متشدد في الوسطية ، وميسر فيها ، ووسط فيها .

المدني أول من أفرد الوسطية بالتأليف :

يُعد الشيخ محمد محمد المدني رحمه الله أول من أفـرد الوسطـية بالكتابـة ـ كما أخبرني بذلك فضيلة شيخنا القرضاوي ـ ويعد كتابه «الوسطية في الإسلام»[1] أول الكتب تأليفاً عن هذا المصطلح الجديد ؛ الذي بدأ ينتشر في كتابات المعاصرين فيما بعد وبكثرة .

وقد حدد الشيخ هدفه من البحث فقال : هدفنا الذي نرمي إليه من هذا البحث أن يقتنع القارئ المسلم بأنه يعتنق أكمل الأديان وأعدلها ، وأن مبادئ هذا الدين وأحكامه ومثله ومقاييسه هي المبادئ السليمة الكفيلة بإسعاد الفرد والمجتمع ، وأن يقتنع القارئ غير المسلم بهذا المعنى نفسه حتى لا يتصور الإسلام دعوة تعصبية أو قاصرة عما يكفُل الحياة السعيدة للناس ، وأن يعرف أن ما جاء به الإسلام إنما هو برنامج عمل إصلاحي للبشرية كافة ، وأنه ينظر إلى مخالفيه نظرة قوامها التسامح والبر ، وليس كما يصوره أعداؤه ديناً هجومياً اغتيالياً ، أو هادماً مدمراً[2] .

---

(١) الكتاب عبارة عن رسالة صغيرة ضمت عدداً من البحوث إضافة إلى ما كتبه الشيخ عن الوسطية ، حيث أضاف إليه بحوثا ثلاثة في أصول الأحكام وهي :

١ - القطعيات والظنيات في الشريعة .

٢ - أسلوب المشرع في العقائد والعبادات والمعاملات .

٣ - مجيء التكاليف في حدود الاستطاعة .

وهي بحوث في حد ذاتها قريبة الصلة بوسطية الإسلام .

(٢) انظر : وسطية الإسلام ص ٧.

وأما فكرة الكتاب فقد دارت كلها حول آية (١٤٣) من سورة البقرة يقول الشيخ : آية كريمة من كتاب الله تعالى ، بل جملة موجزة من آية كريمة ، هي التي سيدور عليها بحثنا في هذا الكتاب ، تلك هي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣) . وليس هذا البحث تفسيراً بالمعنى الذي يتبادر من كلمة التفسير ، وإنما هو دراسة هدفها بيان «وسطية الإسلام» أي عدالته فيما جاء به من أحكام ومبادئ ومُثل ، وكونه قواماً بين الأطراف ، وميزاناً للتعديل يرجع إلى الناس في معرفة الخير والشر ، والحق والباطل ، والصلاح والفساد ، والاستقامة والاعوجاج ، والقصد والغلو ، إلى غير ذلك من هذه المعاني المتقابلة التي يتعرض لها الناس في مختلف شئونهم ووجوه حياتهم[١] .

ويوضح الشيخ أن هذه الوسطية : التي جعل الله المسلمين عليها حين تنزلت عليهم رحمته بهذا الدين ، هي التي جعلت ـ أو من شأنها أن تجعل ـ المسلمين «شهداء على الناس» كما تقول الآية الكريمة . أي أن هذه الشريعة بما فيها من أحكام معتدلة متوسطة ، وبما فيها من مبادئ قويمة ، ومُثل غالية ملائمة بين طبيعة الإنسان وما يجب أن يتكمل به ويسمو إليه ؛ من شأنها أن تكون أمة خيّرة متوسطة مستقيمة على الجادة ، لا انحراف لها في شيء من الأشياء إلى طرف ، ولا التواء لها في أمر من الأمور عن الصراط السوي[٢] .

* * *

(١) انظر : وسطية الإسلام ص ٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٨ .